

## السياسة العِلْمِيَّة

عبد الله بن سليمان العبدالله ( ذو المعالي )

<TD< tr/>

يشكو كثيرٌ من الناس آفاتٍ في طريق تحصيلهم العلم ، بل يشكون عدم جدوى سلوكهم دَرَبَ ( العلم ) .  
و نرى في عباراتهم التوجع من فوات الأعمار في أشياء ظنوها علماً و ما هي بذاك .

و لهؤلاء أقول : إن الأمر قد عمَّ كثيراً من سالكِي دَرَبَ ( العلم ) ، و صدحوا بصرخاتٍ مدوية أرجفت قلوب الغيورين على جانب ( العلم ) و جانب ( العمل ) و جانب ( الإصلاح ) .

و هذا الخلل الكائنُ في صفوف طلاب ( العلم ) إنما عَوْدُهُ إلى إهمال ( السياسة العلمية ) و عدم مراعاتها .

إن أحوال المرء لا تكون فوضوية إلا و يصاحبها الفشل الدائم و عدم الاستفادة ، و لا تكون مرتبةً مَسوسَةً إلا كان لها نتاجٌ طيب و نفع مستمر .

و من ذلك ( العلم ) فإذا كان الطالب سالكاً فيه جادةً مسلوكة ، و طريقة محفوظة حَظِيَّ بعوائد الفوائد ، و أما إذا كان سلوكه من خلال طريق خطرت ، أو سبيل طراً فسُيْلِكَ فإن عوائده بوائد .

لقد نال كثيراً من الناس ذمُّ بسبب إهمال ( السياسة العلمية ) ، كما نال غيرهم مدحاً و حمداً في حسن ( العلم ) بسبب رعاية ( السياسة العلمية ) .

إن ( السياسة العلمية ) حين نعرضُ للكلام عنها فإننا نحصرها في سياسة الطلب . و أعني بها : رعاية ( السياسة العلمية ) في وقت تلقي ( العلم ) .

و هذه مما أولاهها العلماء عنايةً تامةً ، و رعايةً كاملةً عامة .  
و غالباً ما تكون الطريقة في الطلب مفتقرةً إلى معرفة ( الشيخ ) بأسلوب  
( التعليم ) ، و نجاح ( السياسة الطلابية العلمية ) و فشلها منوط بمعرفة الشيخ  
و عدمها .

و العُمْدَةُ في ( السياسة الطلابية العلمية ) هي اعتمادُ طريقةٍ آتت ثمارها ، و  
أثبتت فوائدها . و أما الاعتماد على طريقة لم تُسَلِّكْ و لم تُطَرِّقْ فلا أظن أن  
نتائجها بذاك المؤتي لذته .

و قبيحٌ بطالب ( العلم ) أن يَعْمَدَ إلى طريقة يبتكرها فيسلكها في ( العلم ) ،  
مهماً بذلك نصح الشيوخ ، و توجيه المرين .

كم كنا نسمع عن صبيانٍ شرعوا في المطولات فما جاوزوا مقدماتها ، و كم  
سمعنا بأقوام من الشبان بدأوا في جرد المتون على تلقاء النفس فما خرجوا  
إلا بما دخلوا به .

و العَتَبُ مُرْسَلٌ إلى المشايخ كما هو إلى الطلاب ، إذ إهمالهم التوجيه خلل  
يُحاسِبون عليه ، و يدانون به .

و كانت جادة العلماء قديماً و حديثاً معروفة مشهورة في ( التعليم ) فكان  
مسلكهم في تعليم الطلاب ( العلم ) ما يلي :

**أولاً:** التدرُّج في التعليم ، فكانوا يبدعون بالطالب من الصغار ثم يرتقون به ،  
و هذا حال الربانيين .

**و التدرج على أنواعٍ ثلاثة :**

**أولها :** تدرُّج في الفنون ، فيبدأ الطالب بالفنون الواجبة \_ عيناً \_ عليه ، ثم  
الكفائي ، ... .

**ثانيها :** تدرُّج في المتون ، و يكون بدءً بالمتن الصغير ، ثم المتوسط ، ثم الكبير .

**ثالثها :** تدرُّج في الشرح ، فيكون على مراحل ثلاثية على شاكلة التدرج في المتون .

قال ابن خلدون \_ رحمه الله \_ : [ اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج ، شيئاً فشيئاً و قليلاً قليلاً ، يُلقَى عليه أولاً مسائل من كل باب في الفن هي أصول ذلك الباب ، و يقَرَّبُ له في شرحها على سبيل الإجمال و يُراعي في ذلك قوة عقله و استعداده لقبول ما يُورَدُ عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن ، و عند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزيئة و ضعيفة . و غايتها أنها هيأته لفهم الفن و تحصيل مسأله . ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها و يستوفى الشرح والبيان و يخرج عن الإجمال و يذكر له ما هنالك من الخلاف و وجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته . ثم يرجع به و قد شدا فلا يترك عوبصاً ولا مبهماً ولا منغلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن و قد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات . و قد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له و يتيسر عليه . و قد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته و يحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم و يطالبونه بإحضار ذهنه في حلها و يحسبون ذلك مراناً على التعليم و صواباً فيه و يكلفونه رعي ذلك و تحصيله فيخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها و قبل أن يستعد لفهمها فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ

تدريباً. ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية. ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن. وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه. وإنما أتى ذلك من سوء التعليم [ أهـ ( المقدمة : ص 531-532 ) .

فهذا كلام مؤصلٌ لهذه ( السياسة التعليمية ) المَهْمَلَة عند كثير من طلاب و أهل العلم في هذا الزمان .

**ثانياً:** الاعتماد على المتون المعتمدة في الفنون ، فليست كل المتون في أي فنٍّ هي عُمدٌ فيه ، و هي المعتبر بها ، بل جرت عادة العلماء على اتخاذ متون في كل فن هي المعتمدة فيه .

قال العلامة المرعشي الشهير بساجقلي زاده : [ المنقول من سيرهم ، و المتبادر من كلماتهم في مؤلفاتهم أنهم تناولوا متون الفنون المعتبرة و هي مسائلها المشهورة ] أهـ ( انظر : ترتيب العلوم ص 80 ) .

و هذا من أنواع الخلل الواقع فيه كثير من الشيوخ و طلاب العلوم في تدريس المتون .

و المرجعية في ذلك إلى محققي الفن من المتقدمين المتأخرين ( المتقدمين عن المعاصرين ، المتأخرين في الزمان ) .

وإهمال هذه ( السياسة العلمية ) مما يجلب علينا ضرراً كبيراً كثيراً قال  
البشير الإبراهيمي \_ رحمه الله \_ : [ إن الذبذبة التي شهدنا آثارها السيئة في  
هذا الجيل الذي نحن في آخره معظم السبب فيها آتٍ من قارئيه و متعلميه \_  
على قلتهم \_ فهم على تفاهة معلوماتهم و قلة محصولهم من المعرفة لا  
يرجعون إلى أصل واحد في التعليم و لا إلى منهج واحد في التربية .  
و إذا اختلفت الأصول و المناهج في أمة واحدة كانت كلها فاسدة ، لأن الصالح  
كالحق لا يتعدد و لا يختلف [ أهـ ( آثاره : 111 / 2 ) .  
و الله أعلم و هو الموفق .

جمادى الأولى 1423هـ